جوزف برودسكي

جونْ ضنٌّ نام

جونْ ضنٌّ نام . كلّ ما حوله نام .
نامت الجدران ، والارض ، والسرير ، والصور ،
نامت الطاولات ، والسجادات ، والمزاليج ، والخُطّاف ،
ومقصورةٌ بما فيها ، وخزانة ، وشمعةٌ ، وستائر .
كلّ شيء نام . القناني ، والأكؤس ، واحواض المياه ،
والخبز ، وسكّينة الخبز ، والخزف ، والبلّور ، والصحون ،
ونوّاصةُ الليل ، وخزائن الملابس ، والثياب الداخلية ، والزجاج ، والساعات ،
والابواب ، والخطى على الدرَج. الليلُ في كلّ مكان .
في كلّ مكانٍ الليل : في الزوايا ، في العيون ، في الشراشف ،
بين اكداس الورق ، في الطاولات ، في خطبةٍ مجهَّزة ،
في كلماتها ، في الحطب ، في الملاقط ، في الفحم

في موقدٍ باردٍ ، في كلّ شيء .
في صُدرةٍ ، في خفّين ، في جوارب ، في ظلال ،
خلف المرايا ، في الفراش ، في ظهور الكراسي ،
النوم في المغاسل ، في الصليب ، في الملاءات ،
في مكنسةٍ عند المدخلِ ، في الاحذية . الكلّ نام .
كلّ شيء نام . الشبّاكُ . والثلجُ في الشبّاك .
الانحدارُ الابيضُ في السطح المجاور . مفروشاً كمائدة .
مِزلجُها . وحيٌّ بكامله نام ،
يقطّعه ، يُميته ، إطارُ النافذة .
نامت الاقواس ، والجدران ، والنوافذ ، كلّ شيء نام .
الصخورُ ، والاخشابُ ، والعرائشُ ، والمشاتل .
لا خفقة من ضياء ، لا صريف لعجلة .
الحواجزُ ، والقيودُ ، والاوسمةُ ، والقبور .
نامت الابوابُ ، والحلقاتُ ، والمقابضُ ، والعقاقيفُ ،
والاقفالُ ، والمزاليج ، والمفاتيح ، والعوارض .
لاهمسة ، لا حفيف ، لا طرق باب .
الثلجُ وحدَه يُزَيْزِق . نام الجميعُ . لن يبزغَ الفجر عمّا قريب .
نامت السجونُ والقلاع . نامت الحراشف
في دكان بيّاعٍ للسمك . الرجالُ السِهانُ النعسانونَ ناموا .
البيوتُ ، وساحاتُ البيوت . نامت الكلابُ المزبدة .
نامت الهررةُ في الشقق الارضية ، وآذانُها بارزة .
نامت الفئران ، والرجال ، وغطّت لندنُ في نومٍ عميق .
نام المركبُ الشراعيُّ في الميناء . الماءُ من تحته ، الماءُ
والثلجُ ، نام و ازرقّ ،
واندمج بالسماء النائمة في البعيد .
جونٌ ضنٌّ نام . والبحرُ معهُ .
والساحلُ المبيضّ فوق البحر نام .

نامت الجزيرةُ بأسرها غلبها النومُ وحدَه .
وأغلقت كلّ حديقةٍ بقفلٍ وقفلٍ وقفل .
ونام الاسفندان والصنوبر والشوح الكبير والصغير .
ونامت سفوحُ الجبال ، والجداولُ عند السفوح ، والشِعاب .
والعصافيرُ الصغيرة . ودبّ دبٌّ لفراشه .
يتراكم الثلج امام الجحور .
نامت الاطيار ، لايُسمع لها غناء .
لا يُسمع صوتُ غرابٍ ، صوتُ ليلٍ ،
لا يُسمع ضحكُ بوم . سهلُ انكلترا صامت .
تتألق النجمةُ . يمشي الفأر مغلوباً عليه .
كلّ شيء نام . الاموات يستلقون في التوابيت .
ينامون بسلام . الاحياء ينامون في الفراش.
في بحار من ثياب النوم .
فرادى . يغطّون في النوم . ينامون متعانقين .
كلّ شيء نام . نامت الانهار ، والجبال ، والدِغال .
نام الحيوان ، والطير ، وعالم الاموات ، والاحياء .
وحدَه الثلجُ الابيضُ ينبثق من سماوات المساء .
لكنهمْ ناموا، ايضاً همُ ، فوق كل الرؤوس ،
نام الملائكة . عالمٌ قلقٌ غاب عن
فكر المطوّبين — ويا لعار المطوّبين .
نام الجحيم ، والنعيمُ الرائعُ .
لن يترك البيتَ انسانٌ في هذه الساعة .
نام الاله القدير . الارض انسانٌ غريب .
الأعينُ لا ترى ، والسمْعُ لا يُصيخ .
والشيطانُ نام . ومعه النزاعُ
نام في الثلج على حقلٍ انكليزيّ .
الخيّال نام . نام رئيس الملائكة وفي يديه بوق .
نامت الخيل ، رشيقةً في نومها تتمايل .
ونام الكروبيمُ ، ناموا جميعا، زرافاتٍ
يتعانقون ، ناموا تحت قبة كاتدرائية بولس .

جونْ ضنٌّ نام . نامَ ، نام القصيد .
كلّ الاشكالِ كلّ القوافي. لا توجد القويةُ ،
ولا الضعيفة . الرذيلةُ ، الملالُ ، الخطايا ،
صامتةٌ كلّها ، منبطحةٌ في المقاطع .
وكلُّ بيتٍ مع الآخر ، كشقيقٍ حميم
مع انه ينادي الآخرَ : اقتربْ اليّ أكثر .
كلٌّ بعيدٌ بعيدٌ عن رِتاجات النعيم ،
كلٌّ فقيرٌ ، كثيفٌ ، نظيف ، ففيها وحدةٌ تنتظمها .
نامت الابياتُ جميعا . نامت الاوزان ،
هذي وتلك ، كحرّاسٍ ، عن شمالٍ ، عن يمين .
ونامت فيها رؤى مياهٍ عتيقة .
وغطّ المجدُ في النوم من ورائها .
نامت كلّ البلايا . غطّ في النوم الالم .
نامت الرذائل ، والرحمةُ والاثمُ في عناق .
نام النبيّون . الثلجُ المبيّضُ المتساقط في المدى
الشاسعِ يبحث عن بقاعٍ سوداءَ مهجورة .
كلّ شيء نام . غطّت في نومها حشودُ الكتب .
نامت جداولُ الالفاظ، يغطّيها جليد السَهْو .
نامت جميع الخطب ، وما فيها من صدقٍ وحقّ .
نامت قيودها . زرداتُها برفقٍ تجلجل .
نام الجميع ، نوما عميقا . الطاهرونَ ، والشيطانُ ، والاله .
خُدّامهمُ الاشرارُ . اصدقاؤهمُ . اولادُهم .
وحدَه الثلجُ يخشخش على الدروبِ المعتمة .
وليس صوتٌ آخر في العالم كلّهِ .

لكن اصغِ ! استمعْ : هناكَ ، في الظلمة الصاقعة ،
صراخُ شخص ، شخصٍ يوشوش مذعورا .
هناك شخصٌ تركوه يواجه الشتاء ،
يصرخُ . هناك شخصٌ في الظلام .
الصوتُ خافت . خافتٌ كابرة .

وليس خيط . وحيدٌ هو
يسبح في الثلج . بردٌ في كل مكان ، ظلمةٌ دامسة .
تخيط الليلَ بالفجر ... عالياً جدا .
« مَن هناك ، ينشجُ . أ أنت يا ملاكي ،
تنتظر الرجوع ، تنتظر تحت الثلج ،
كسنوات حبّي . تؤوب في الظلام .
ألست انت الصارخ في الظلام » . — وما من جواب .
« ألست انت هناك يا كروب . صوتُ هذي
الدموعِ ذكّرني بجوقٍ حزين .
أ قرّرت هجرَ قصري النائمِ
على حين غفلةٍ ، هكذا . ألست انت . لست انتَ » . — سكوت .
« ألست انت ، يا بولسُ . صحيحٌ ان صوتكَ
قد اخشوشن لجهامة خطابك .
ألست انت الصارخَ هناك ، ولحيتك الشائبة منكسرة الخاطرِ » .
— لكنما الصمتُ يهرعُ للاجابة .
« أليست تلك اليد التي تلوح
هنا هناك التي اسدت على البصر الظلام » .
« ألست انت ، ايها الاله القدير . ربما اشتطّ فكري ،
لكنما الصوتُ الصارخُ صوتٌ مرتفع » .
صمتٌ . سكوت . — « ألست انت ، جبرائيل ،
نفختَ في البوق ، بينما ينبحُ شخصٌ عاليا
لكني فتحتُ عينيّ ، انا وحدي
والفرسان يلجمون جيادَهم
كلّ شيء نام ، نوما عميقا . في عناق وثيق مع الظلام
والكلاب تندفع من السموات زرافاتٍ
ألستَ انت ، يا جبرائيل ، وحيداً في الظلا
في منتصف الشتاء ، في يديك البوقُ ، تنشجُ »

لا ، هذي أنا ، روحك يا جونْ ضنّ
هنا في عليائي في السماء اتفجّعُ وحدي

لاني بعناءٍ ابتدعت
مشاعرَ وافكاراً ثقيلة كقيود .
بهذا الحمل تستطيع ان تطير
بين العواطف ، بين الخطايا وأعلى .
كنتَ طيراً ورأيتَ بني شعبك ،
في كلّ مكانٍ ، جميعا ، وانت تنطلق فوق السطح المنحدر .
رأيتَ كلّ البحار وكلّ ما بعدها من اراضٍ ،
رأيتَ الجحيمَ – فى ذاتك ومن ثمّ في الواقعِ .
وبالوضوح نفسه رأيتَ النعيم البهي
في اتعس الاوضاع طرّاً والعواطف
رأيتَ الحياةَ ، كجزيرتك .
ومع اليمّ هذا ايضا لقيت
الظلمةَ من كلّ جنب ، الظلمةَ فحسبُ والزعيق .
وفي طيرانك اجتزتَ الاله ، وهرولتَ راجعا .
لكنّ هذا الحملَ لن يسمح لك بجوْب الاعالي ،
حيث هذا العالمُ – مائةُ برجٍ فحسب
وبضعةُ اشرطةٍ من جداول ، وحيث ، ان نظرتَ من اعلى
وجدت هذا الحكمَ المخيف يكاد لا يخيف .
والطقس في تلك البلاد لا يتبدل .
من هناك كلّ شيء يتراءى حُلُماً مرهَقاً عليلا .
من هناك الالهُ – نورٌ ليس الاّ في نافذة
في ابعد البيوت في ليلة اشتدّ فيها الضبابْ .
قد توجد الحقول هناك .لكنها لم تعرف الحرث .
لم تحرثْ منذ سنين ، لم تحرثْ منذ قرون .
وحدَها الاحراجُ هناك ، قائمة كأسوار .
وحدَها الامطارُ تطفر في الحشائش الهائلة .
ها الحطّاب المبكّر ، يرتطم حصانه الهزيل بها .
يضلّ الطريقَ في الغابة المرعبة ،
ويرتقي شجرةَ الشربين ، ومن هناك يرى
ناراً في ارضه ، هناك ، في البعيد .

كلّ شيءٍ ، كلّ شيءٍ في البعيد
وهنا الارضُ لا تبدو بوضوح ،
وتنساب النظرةُ الهادئة فوق السطوح البعيدة .
هنا الجوّ مشرقٌ ، ولا صوت نباحٍ لكلب ،
ولا يُسمع دقُّ اجراسٍ ابدا .
وسيُدرك ان كلّ شيءٍ في البعيد .
وفجأةً سيتحوّل للغاب بحصانه ،
وينقلب في لحظةٍ ، هو والعنان ، والمركبة ، والمساء ،
والحصان الحزين – ينقلب الجميع حلْمَ توراة .
وأصيح ، أصيح : ليس من طريق ،
مقضيٌّ عليّ ان اعود صخرا .
لا استطيع الذهاب لهناك بالجسد .
ميّتا فحسبُ مقضيٌّ عليّ الارتقاء لهناك .
اجل ، اجل ، لوحدي ، وانساكَ ، يا ضيائي ،
في الارض المبلّلة . انسى للابد ، واتحرّكُ
نحو العذاب ، عذابِ رغبةٍ لا تُحقّق .
كيما اخيطَ بجسدي ، اخيطَ الفراق .
لكن اصغِ ! بينما اعكّر بنحيبي هنا
راحَتك ، ينطلق الثلجُ في الظلامِ ، لا يذوب ،
يخيطُ فراقَنا هنا ،
وتنطلق الابرةُ ، اماماً وخلفْ .

لستُ انا الذي يبكي . انتَ تبكي ، يا جون ضنّ .
انت تستلقي وحيدا . والصحون تنام في الخزائن ،
طالما الثلجُ يسقط على المنزل الغافي ،
طالما الثلجُ يسقط من هناك الى الظلام .
ينام في عشّهِ ، مثلَ طير ،
مودعاً ابداً تلك النجمةَ التي تحجبها الآن سحابة
مسلكَه الفاضلِ
وظمأَه لحياةٍ افضلَ .

مثلَ طير . روحه نقيّةٌ ،
ومسلكُه الدنيويّ ، ولو انّه يُظنّ آثما ،
على الفطرة ، اكثرَ من عشٍّ قاق
فوق حشدٍ اغبرَ من صناديق اعشاشٍ خاوية .
سيستيقظ ايضا خلال النهارِ ، مثلَ طير .
والآن يستلقي تحت البساطِ الابيضِ ،
الى ان يُخاط مع الثلج ، يُخاط مع النومِ
ذاك المدى بين الروح وبين الجسد النائمِ .

كلّ شيءٍ نام . لكن قصيدتينِ ثلاثَ قصائدَ تنتظر النهاية
تضحك بفمٍ مفلّج الاسنان
من انّ الحبّ الدنيويّ واجبُ الشاعر ،
والحبّ الروحيّ جسدُ الراهبِ .
ما همّ على اي دولابٍ تصبّ هذي المياه
فهي تطحن الخبزَ ذاته في هذا العالمِ .
انْ كان بوسعنا ان نقتسم الحياة مع احد ،
فمن يقتسم الموت و ايانا .
ثمة ثقبٌ بهذا النسيج .
كلّ من يشاء ، يمزّق .
من كلّ الجهات . يروحُ . يعود .
مَزْقٌ جديد ! والجَلَدُ وحده
يأخذ احياناً ابرةَ الخيّاط في الظلام .
نمْ ، جونْ ضنٌّ ، نمْ . نمْ عميقا . لا يتولاك العذاب .
القباءُ مخرّمٌ ، مليءٌ بالثقوب . يتدلّى حزينا .
فلربما اطلّت النجمة من وراء سحابة
أبقتْ عالمَك محجوبا هذي السنينَ الطويلة .